عناصر المرتزقة فى الجيوش المغربية

منذ القرن السادس الهجرى حتى القرن الثامن الهجرى

(١٢ - ١٤م)

أ. د. رضوان محمد رضوان البارودى(*)

دأبت الدول المتباينة التى تعاقبت على حكم بلاد المغرب منذ مطلع القرن السادس الهجرى(١٢م) على استخدام عناصر من المرتزقة المسيحيين للعمل كجنود فى صفوف جيوشها ، ومن العجيب أن بعض هذه الدول قامت على أساس دعوة دينية إصلاحية ، واتخذت من الجهاد فى الأندلس هدفًا أساسيًا لقيامها، مثل المرابطين والموحدين ، وكذلك بنى مرين الذين جعلوا من الجهاد هدفًا مباشرًا لقيام دولتهم برغم أنهم لم يستندوا إلى دعوة دينية إصلاحية كما فعلت الدول السابقة عليهم(١) . وعندما نتساءل عن الأسباب التى دفعت حكام المغرب إلى الاستعانة بهذه العناصر المسيحية وضمها إلى صفوف جيشها ، يعطينا ابن خلدون تبريرًا لذلك فيقول أن طريقة القتال عند هذه العناصر المسيحية المرتزقة والتى تعتمد على أسلوب الثبات فى الزحف هى السبب الأساسى لاستخدام هذه العناصر ، لأن أسلوب القبائل البربرية التى كانت تكون غالبية أعداد الجيوش المغربية اعتمد على الكر والفر ، ويضيف ابن خلدون أن هؤلاء المرتزقة كانوا يستخدمون فقط فى الحروب المحلية ضد الثائرين والمخالفين سواء من العرب أو البربر ، أما فى الحروب ضد النصارى فلا يستعان بهم حذارًا من ممالأتهم على المسلمين(٢) . ويمكن أن نضيف إلى ما ذكره ابن خلدون سببًا آخر هو عدم ثقة حكام دول المغرب فى بعض العناصر المحلية وخشيتهم للتعرض للاغتيال فى حال استخدام هذه العناصر المحلية كحرس خاص لهم(٣) .

(*) أستاذ بكلية الآداب - جامعة الكويت .

كذلك استخدم المرتزقة المسيحيين فى عملية جباية الضرائب . ويرى أحد الباحثين الحديثين أن النظام الإقطاعي العسكرى الذى ساد فى عصرى المرابطين والموحدين ومن بعدهم فى الدول المغربية الأخرى (مثل دولة بنى مرين وبنى عبد الواد) قد أرهق الفلاحين بأنواع مختلفة من الضرائب والجبايات ذات السمة الإقطاعية والتى لا أصل لها فى الشرع(٤) . وهذه الضرائب والجبايات يصعب تحصيلها فى المناطق البعيدة والنائية - وخصوصًا المناطق التى تجتازها القبائل الرحل - حيث تضعف السلطة المركزية ، ولابد للدولة أن تبعث بجنودها لحماية عمال الجباية والمشاركة فى تحصيلها(٥) .

أما عن بداية استخدام هذه العناصر فى الجيوش المغربية ، فقد اختلف المؤرخون فيما بينهم حول أول من استخدمهم ، فابن الخطيب يذكر أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين هو أول من استخدمهم فى صفوف جيشه(٦) . أما ابن عذارى وصاحب الحلل الموشية فيؤكدان أن الأمير على بن يوسف بن تاشفين هو أول من استخدمهم من المرابطين(٧) . وقد برز من هؤلاء النصارى على عهد المرابطين قائد قطلانى من أهل مدينة برشلونة Barcelona عرف فى المصادر العربية باسم الربرتير Reverter وكان هذا القائد من ضمن قواد ملك أراجون ولكنه وقع أسيرًا فى يد أمير البحر المرابطى على بن ميمون ، فحمله إلى على بن يوسف بن تاشفين بمراكش فولاه قيادة المرتزقة فى جيوشه . وقد أبلى هذا القائد بلاء حسنًا فى الدفاع عن دولة المرابطين ، حتى قتل فى إحدى المعارك ضد الموحدين عند مدينة تلمسان بالمغرب الأوسط عام ٥٣٩هـ/١١٤٥م(٨) .

أما فى عصر الموحدين : فقد استمرت عملية استخدام المرتزقة الأجانب فى صفوف جيوشهم . ذلك أن الفرقة النصرانية العاملة فى جيش المرابطين انضمت إلى الموحدين بعد أن سهلوا لعبد المؤمن بن على أول خلفاء الموحدين دخول مدينة مراكش عاصمة المرابطين عام ٥٤١هـ / ١١٤٦(٩) . لذلك لم يجد عبد المؤمن بن على حرجا فى ضمهم إلى صفوف جيشه . وقد يبدو هذا الإجراء من جانب عبد

المؤمن بن على غريبًا ، حيث يذكر عبد الواحد المراكشى أن عبد المؤمن كان شديدًا على أهل الذمة من اليهود والنصارى ، وأنه لم تنعقد فى عهده ذمة ليهودى ولا نصرانى ولا يوجد فى جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة(١٠) . ولكن يبدو أن الحاجة إلى جهود هؤلاء المرتزقة كانت شديدة ، لذلك غض الموحدون الطرف عن مسألة تشددهم المزعوم مع النصارى واليهود . ودليلنا على ذلك ما تذكره المصادر من أن هؤلاء المرتزقة شاركوا فى العديد من العمليات العسكرية التى قامت بها الجيوش الموحدية ضد الثائرين فى بلاد المغرب . من ذلك أنه عندما ثار محمد بن عبد الله بن هود الماسى (نسبة إلى رباط ماسة على ساحل المحيط الأطلسى) فى عهد عبد المؤمن بن على ، لم يتردد هذا الأخير فى إرسال جيوشه لأخماد هذه الثورة . وكانت فرقة الروم أو الجند النصارى ضمن الفرق المكونة لهذا الجيش(١١) . كذلك يشير ابن صاحب الصلاة إلى أن الروم كانوا من ضمن العناصر التى خرجت رفقة الخليفة الموحدى أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ - ٥٨٠هـ) لاستقبال العرب الوافدين إلى مراكش فى ربيع الآخر عام ٥٦٩هـ/ يناير ١١٧٣م(١٢) . ومن أشهر قواد المرتزقة النصارى فى جيوش الموحدين شخصية القائد البرتغالى جيرالدو سمبافور Giraldo Sampavor (والمعروف فى المصادر العربية باسم جراندة الجليقى) ، هذا الفارس انضم مع جماعة من الفرسان النصارى لخدمة الموحدين بعد أن استسلم لهم عام ٥٦٩هـ / ١١٧٣م ، وقد قام الخليفة أبو يعقوب بنقله هو وجنوده من الأندلس إلى المغرب حيث أرسله إلى السوس الأقصى وولاة قيادة المرتزقة العاملين فى الجيش الموحدى فى هذه المنطقة . بيد أن نهاية هذا القائد البرتغالى كانت مأساوية ، حيث قتل على يد عامل درعه موسى بن عبد الصمد ، وبتحريض من الخليفة نفسه . ويذكر البيذق أن سبب اغتيال هذا القائد هو اتصاله بابن الرنك (الفونسو هنريكث ملك البرتغال) وخيانته للموحدين(١٣) .

أما الخليفة أبو يوسف يعقوب المعروف بالمنصور فكان حرسه الخاص من هؤلاء المرتزقة ، وكانوا من الرماة ، وأسكنهم أحد القصور التى شيدها ، وكانوا يسيرون أمامه أينما تنقل من مكان لآخر(١٤) .

ونلاحظ أن هؤلاء المرتزقة سواء الذين عملوا فى خدمة المرابطين أو الموحدين لم يكن لهم أى دور فى توجيه الأحداث الداخلية ، و لم يتعد دورهم أكثر مما رسمه لهم حكام المغرب ، فهم حرس خاص أو جباة ضرائب أو يشاركون فى إخماد بعض الثورات الداخلية . و لم يكن لهم فى المقابل أية حقوق - باستثناء رواتبهم - فلم يكن لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية ، ولا توجد لهم كنائس خاصة بهم أو حتى أساقفة منهم . بيد أنه منذ خلافة المأمون الموحدى (٦٢٤ - ٦٣٠هـ/ ١٢٢٧ - ١٢٣٣م) أخذت هذه العناصر من المرتزقة تلعب دورًا بارزًا فى أحداث بلاد المغرب ، فقد استعان بهم هذا الخليفة لدخول مراكش عندما ثارت ضده وبايعت لأخيه يحيى الناصر بالخلافة . وقد أرسل المأمون إلى ملك قشتالة فرناندو الثالث يطلب مساعدته بفرقة من الفرسان القشتاليين ، وبالفعل استجاب فرناندو لهذا الطلب وسير جماعة من هؤلاء الفرسان بلغ عددهم اثنى عشر ألف فارس(١٥) . ولكن ملك قشتالة اشترط عدة شروط على المأمون نظير موافقته على مسير هؤلاء المرتزقة القشتاليين لمساعدة المأمون الموحدى ، ومن هذه الشروط :

أن يقدم الخليفة الموحدى عشرة حصون يختارها الملك القشتالى بنفسه ، وأن يسمح لهؤلاء النصارى ببناء كنيسة لهم فى وسط مراكش يؤدون فيها شعائرهم الدينية بحرية كاملة ، وإذا اعتنق أحد هؤلاء المرتزقة الإسلام فلا يقبل منه ويرد إلى أخوانه . وقد قبل المأمون كل هذه الشروط(١٦) .

هذا وقد استنكر نفر من المؤرخين القدماء والحديثين هذا التصرف من قبل المأمون ، فصاحب كتاب ذكر مشاهير أعيان فاس ينتقد الموحدين بقوله : " ومن قبح فعلهم التجييش بالنصارى وسكناهم مراكش وإقامة دينهم بين ظهور المسلمين وعدم تصرفهم فيهم ، بل جعل أمرهم لرهبانهم يجهزون بهم لحرب المسلمين

بالمغرب"(١٧) . أما المؤرخ التونسى محمد المطوى فقد برر تصرف المأمون بإنه كان مدفوعًا برغبته فى التنصر والارتداد عن الإسلام ، لأن المأمون من وجهة نظر المطوى – كان متأثرًا بنزعة مسيحية حيث ارتقى العرش على أسنه رماح المرتزقة . ثم أن أم المأمون أم ولد نصرانية رومية(١٨) . والواقع أن كلا الطرفين أخطأ فيما ذهب إليه ، لأن ما فعله المأمون الموحدى ليس بدعة أو سنة جديدة ، فقد سبقت الإشارة إلى استعانة المرابطين وخلفاء الموحدين الآخرين بعناصر المرتزقة فى جيوشهم . أما القول بالتأثر بالنزعة المسيحية والرغبة فى التنصر فهو قول بعيد تمامًا عن الصحة . ويعلق بيير دى سينفال على هذه الحادثة بالقول بأن المأمون لم يكن يفكر فى اعتناق المسيحية(١٩) .

وكيفما كان الأمر ، فقد صار لعناصر المرتزقة المسيحية فى أواخر عهد الدولة الموحدية دخل كبير فى أحداثها ، إذ هاجم الأمير الموحدى يحيى بن الناصر مدينة مراكش مستغلا فرصة انشغال عمه المأمون بحصار سبته عام ٦٢٩هـ/١٢٣٢م ، وقام بحرق كنيسة نوتردام التى خصصها المأمون لجنده النصارى ، كما قام بقتل عدد كبير من هؤلاء الجند . ويبدو أن الأمير يحيى كان يريد أن يكسب عامة أهل مراكش إلى جانبه ، لأن هؤلاء لم يستسيغوا وجود عناصر من المرتزقة بين ظهرانيهم ، كما أن السماح لهم بممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية قد مس مشاعر هؤلاء العامة . وقد حاول المرتزقة من جانبهم الدفاع عن أنفسهم ، وكاد الموقف ينفجر بين الطرفين لولا أن الخليفة الموحدى الجديد الرشيد بن المأمون – عمل على تهدئة الأمور داخل مراكش ، فأصدر عفوا عن أهل مراكش ، وفى نفس الوقت دفع مبلغا كبيرًا من المال لقائد المرتزقة القشتاليين المسمى فرنسيل حتى لا يتعرض لأهل مراكش بسوء(٢٠) . وبرغم ذلك فقد استمر الموحدون يستخدمون هذه العناصر لمساندتهم فى القضاء على الثائرين ، إذ استعان الرشيد الموحدى بهم فى التخلص من أحد زعماء القبائل العربية بالمغرب – وهو مسعود بن حميد زعيم قبائل الخلط – حينما رفض هذا الأخير الاعتراف ببيعة الخليفة الرشيد(٢١) . أما المرتضى الموحدى فقد استكثر من

هؤلاء المرتزقة بصورة واضحة حيث أرسل إلى الأندلس عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م يطلب أعدادًا كبيرة منهم ليركبوا معه ويكونوا أعوانا ، فوصلوا إليه فى تلك السنة(٢٢) .

ولكن برغم ازدياد الحاجة إلى هذه العناصر المسيحية من المرتزقة ، إلا أن الأمر لم يسلم من تعرضهم لأعمال عنف من قبل الحكام الذين كانوا يشكون فى إخلاصهم فى كثير من الأحيان . وقد يبدو ذلك منطقيا ، لأن هذه العناصر إنما تدين بولائها لمن يدفع لها ، ولذلك نسمع عن حدوث تنكيل بهؤلاء المرتزقة المسيحيين . من ذلك أن الخليفة الموحدى المرتضى دبر مؤامرة لاغتيال قائد الفرقة النصرانية فى جيشه المسمى دى اللب Del Lobo مع من معه من هؤلاء المرتزقة(٢٣)، كذلك قام هذا الخليفة بإلقاء القبض على قائد الجند النصارى فى مراكش المسمى جارثيا طاليس Garcia Tales لأنه خشى أن يفر هذا الأخير إلى أعدائه(٢٤) .

المرتزقة الأجانب وجيوش الدول المغربية عقب انهيار دولة الموحدين:

حدث عقب انهيار دولة الموحدين أن تفتتت وحدة بلاد المغرب التى كانت قائمة فى عصرى المرابطين والموحدين ، وتولى حكمها ثلاث دول هم : المرينيون فى منطقة المغرب الأقصى وعاصمتهم فاس ، والزيانيون فى المغرب الأوسط وعاصمتهم تلمسان ، والحفصيون وعاصمتهم تونس . هذا الدول الثلاث لم تشذ كثيرًا فى نظمها عما كان سائدًا عند الموحدين ، ولذلك استمر استخدام عناصر المرتزقة الأجانب فى صفوف جيوشها لنفس الأغراض السابقة . ففى عهد المرينيين كان استخدامهم منذ فترة مبكرة فى تاريخهم ، إذ يذكر ابن خلدون أن الأمير أبا بكر بن عبد الحق المرينى هو أول من استخدمهم عندما أوقع بفلول الجيش الموحدى المنسحب من أمام تلمسان عام ٦٤٦هـ/١٢٤٨م ، وضم إليهم عدة فرق من هذا الجيش ومن ضمنهم هؤلاء المرتزقة أو الروم كما يسميهم ابن خلدون(٢٥).

كذلك شاركت عناصر المرتزقة المسيحيين فى الأحداث الداخلية لدولة بنى مرين ، فكانوا إحدى الفرق التى خرجت مع السلطان أبى يوسف يعقوب لغزو تلمسان عام ٦٧٧هـ/ ١٢٧١م . كما انضموا إلى جانب الأمير المرينى أبى على ابن أبى سعيد عثمان فى ثورته ضد والده(٢٦) . وفى أثناء ثورة الوزير رحو بن يعقوب الوطاسى ضد السلطان ابن الربيع سليمان عام ٧١٠هـ / ١٣١٠ انضم هؤلاء المرتزقة وزعيمهم عنصاله (جونثالو Gonzalo) إلى جانب الوزير المرينى فى ثورته(٢٧) .

وقد ازداد تدخل هذه العناصر فى أمور الدولة المرينية خاصة فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى ١٤م ، حيث بدأت علامات الضعف تظهر على حكم المرينيين ، وانشغل السلاطين والأمراء بالصراع ضد بعضهم البعض فى سبيل الحكم والسلطة . ولعل مأساة السلطان أبى الحسن المرينى مع ابنه السلطان أبى عنان فارس أبرز دليل على ما نقول . ولهذا كثر اعتماد المرينيين على هذه العناصر المرتزقة لمؤزراتها فى صراعها ضد الطامعين فى العرش . ويحدثنا ابن الخطيب فى كتابه نفاضة الجراب عن أحداث تلك الفترة المضطربه فى تاريخ الدولة المرينية عقب وفاة السلطان أبى عنان فارس ، وكيف تنازع القواد فيما بينهم لتوليه أمير بعينه على العرش . ويشير إلى دور الفرقة النصرانية فى أحداث هذا الصراع ، حيث انضموا إلى جانب أحد المرشحين ودار قتال عنيف بين أنصار كل مرشح . ولم ينته الأمر إلا بظهور السلطان ابن سالم إبراهيم على مسرح الأحداث(٢٨) . وفى أواخر أيام هذا السلطان تآمر أحد وزرائه مع قائد المرتزقة النصارى غرسيه بن أنطول على الفتك بالسلطان أبى سالم ومبايعة الأمير المرينى أبا عمر تاشفين بن سلطان أبى الحسن على . وتمكن أحد الجند النصارى من اغتيال السلطان أبى سالم(٢٩) . ولكن مصير قائد المرتزقة غرسية لم يكن بأفضل من مصير سلطانه حيث لقى هو الآخر مصرعه على يد السلطان الجديد أبى عمر تاشفين المعروف بالموسوس ، هذا عن قتل عدد كبير من المرتزقة المسيحيين حينما فروا إلى معسكرهم بحى الملاح فى فاس ، وقد رد المرتزقة على تلك المذبحة التى تعرض لها

أخوانهم باغتيال عدد كبير من أهل فاس كانوا بالملاح يشربون الخمـر ، و لم تهـدأ الأمور ألا بعد تدخل الجيش المرينى لإنهاء هذه الفتنة(٣٠) .

هناك حادثة أخرى وقعت فى تلك الفترة توضح مدى نفوذ هـؤلاء المرتزقـة النصارى وتدخلهم فى الشئون الداخلية للمدنيين ، فقد حاول أحد الأمراء المرينيين وهو الأمير عبد الحليم بن أبى على بن أبى سـعيد عثمـان الظفـر بـالعرش المرينـى ، ولكن الوزير عمر بن عبد ا لله عمل من جانبه على مواجهة هذا الخطـر ، و لم يجـد من يستعين به إلا المرتزقة النصـارى ، فعمـل على كسـب رضـاهم وأخـذ عليهـم المواثيق والعهود بمناصرته ، ومـن العجيـب أن مفاوضـات هـذا الوزيـر مـع هـؤلاء المرتزقـة تمـت فـى كنيسـتهم علـى يـد ترجمانـه وقسيسـهم ، كمـا يذكـر ابـن الخطيب(٣١) . وقد تمكن الوزير عمر من الانتصار على الأمير عبـد الحليـم بفضـل مساعدة هؤلاء المرتزقة النصارى .

ومن الأعمـال الأخرى التـى انيـط بالمرتزقـة القيـام بهـا عمليـة الاغتيـالات السياسية ، فقد عهد السلطان أبو الربيع سليمان إلى قائد الجند النصارى (غصالـه) قتل الوزير وصاحب العلامة عبد ا لله بن أبى مدين نتيجة لوشاية الحاجب أبى خزر اليهودى(٣٢) . كما أوعز الأمير المرينى أبو الفضل بن السلطان أبى سـالم إبراهيـم لقائد الجند النصارى باغتيال منافسه على العرش الأمير عبد المؤمن بن على بن أبـى سعيد عثمان فقتله وجاء برأسه إليه(٣٣) .

وبالإضافة إلى أعمال الاغتيالات السياسية ، كلف السلاطين من بنـى مريـن بعض هؤلاء القادة المرتزقة بالقيام بأعمال السفارة لـدى ملـوك أسبانيا المسيحية ، فالسلطان المريني أبو يعقوب يوسف أرسل قائد المرتزقة النصارى فى جيشه المسمى برناط سجين سفيرًا إلى ملك أراجـون جايمى الثـانى Jaime II كذلـك عمـل هـذا القائد سفيرًا للسلطان أبى ثابت عامر لدى الملك الأراجونـى لطلـب المسـاعدة فـى حروب المرينيين ضد غرناطة حينما استولى السلطان الغرنـاطى محمـد الثـالث على مدينة سبتة(٣٤) عام (٧٠٥ هـ/ ١٣٠٥م) ، أما الفارس القشتالى جارثيا مارتينيز

دى جايجوس Gercia Martinez de Callegos فكان أحد أعضاء الوفد المرينى الذى ذهب للتفاوض مع قائد الأسطول القشتالى دون بدرو ابن الملك القشتالى الفونسو العاشر أثناء حصار الجزيرة الخضراء عام ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م(٣٥) .

والملاحظ أن هؤلاء المرتزقة المسيحيين العاملين فى صفوف الجيش المرينى عوملوا معاملة طيبة من قبل الحكام المرينيين بصفة عامة . فقد كان لهم رئيس يسمى " أمين النصارى " ، ولهم قساوستهم الذين يشرفون على شئونهم الدينية ، فضلاً عن كنيستهم الخاصة بهم . كما أقاموا فى مكان خاص بهم فى مدينة فاس الجديدة وهو حى الملاح ، الذى كان حى اليهود أيضًا . كذلك كان لهؤلاء المرتزقة النصارى مطلق الحرية فى تناول الخمر فى حيهم هذا . ويذكر ابن مرزوق أن السلطان أبا الحسن على المرينى برغم ما عرف عنه من تشدد فى الأمور الدينية(٣٦) ، إلا أنه لم يتمكن من منعهم من شرب الخمر ، وكل ما فعله هو أنه اشترط عليهم ألا يجاهروا بشربه ، ومن ضبط منهم وهو ثمل أو ثبت عليه أنه باع الخمر لمسلم عوقب بشدة حتى يصبح عبره للمعتبر(٣٧) ويبرر ابن مرزوق هذا التساهل من قبل أبى الحسن مع النصارى بشدة الحاجة إليهم وانتفاع المسلمين بهم.

أما دولة بنى زيان وهى إحدى الدول المغربية التي قامت على أنقاض دولة الموحدين فى منطقة المغرب الأوسط واتخذت من مدينة تلمسان عاصمة لها ، ومؤسس هذه الدولة هو الأمير أبو يحيى يغمراسن (ومعناها بالزيانيه رئيس القوم) الذى أعلن فى عام ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م استقلاله عن سلطة الموحدين وإن كان ظل يدعو لهم تارة وللحفصيين أصحاب تونس تارة أخرى(٣٧) .وقد استعان الزيانيون بفرق من المرتزقة المسيحيين فى جيوشهم لنفس الأسباب التى دعت المرينيين ومن قبلهم الموحدين والمرابطين إلى استخدام هذه العناصر . وكانت مملكة أراجون بالذات هى المصدر الرئيسى الذى أمد الزيانيين بحاجتهم من هؤلاء النصارى المرتزقة ، ويتضح ذلك من خلال المراسلات المتبادلة بين الزيانيين وملوك أراجون . فقد بعث السلطان يغمراس بن زيان سفارة إلى خايمى الأول ملك أراجون فى ٢٩ ربيع الأول عام ٦٤٨هـ/ ٣٠ يونيو ١٢٥٠م يطلب منه عدة مطالب من ضمنها

فرقة مـن المرتزقـة القطلانيين للعمـل فـى الجيـوش الزيانيـة(٣٨) . وتشـير المصـادر الأراجونية إلى سفارة أخرى أرسـلها جـايمى الثـانى ملـك أراجـون عـام ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م إلى أبى سعيد عثمان سلطان بن زيان لمناقشة بعض الأمـور بـين الدولتـين ومن ضمنها ما يتعلق بالمرتزقة القطلان العاملين فى خدمة الزيانيين ، حيـث أبـدى الملك الأراجونى استعداده لإرسال المؤن والبضائع اللازمة لأفراد هذه الفرقة ، كما طلب تعيـين أحـد القـواد ويدعـى رودريجوسـا تشـيزدى بيرجـاس قـائدًا للمرتزقـة النصـارى فـى تلمسـان(٣٩) . ومـن الملاحـظ أن المصـادر العربيـة تنفـى أن يكـون المرتزقة قد عملوا فى خدمة الزيانيين حتى ذلك الوقت ، إذ يشير أبـو زكريـا يحيـى ابن خلدون أن السلطان يغمراسن بن زيان قد أطاح بهـم عقـب اكتشـافه لمؤامـرة دبرها المرتزقة لاغتياله وذلك عام ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م . ويضيف ابن خلدون أنه منذ ذلك الوقت لم يستخدم بنو عبد الواد هؤلاء المرتزقـة فـى جيوشـهم(٤٠) . بيـد أن الوثائق الأراجونية وكذلك العربية المحفوظة فى أرشيف تاج أراجون تثبت - بمـا لا يدع مجالاً للشك - استمرار بنى زيان فى الاستعانة بهـؤلاء المرتزقـة المسيحيين ، بحيث أصبح موضوع الفرقة العسكرية القطلانية العاملة فى صفوف الجيوش الزيانية من الموضوعات الرئيسية فى كل المراسلات المتبادلة بين سلاطين بنى زيـان وملـوك أراجون . فعلى سبيل المثال ورد فى رسالة بعث بها خايمى الثانى ملك أراجون إلى أبى عبد الرحمن سلطان بنى زيان عام ٧١٩هـ / ١٣١٩م إشارة إلى موافقـة الملـك الأراجونى على بقاء المرتزقة القطلان فى تلمسان كنوع من التعاون بين الدولتين . وفى رسالة أخرى مؤرخة بتاريخ ١٥ مـارس ١٣٢٥م / ٢٨ ربيـع الأول ٧٢٥هـ ومرسلة من ملك أراجون إلى ابـن تاشـفين إشـارة إلى طلـب الملـك الأراجونـى أن يكون له وحده حق تعيين قائد الفرقة العسكرية الأراجونية العاملـة فـى تلمسـان ، بل واقترح أن يكون ابنه خايمى الأراجونى قائدًا لهذه الفرقة ، ومن المثير للدهشة أن السلطان الزيانى فى رده على هذه الرسالة قد وافق علـى هـذا الطلـب(٤١) . هـذا و لم يقتصر استخدم الزيانيين للمرتزقة المسيحيين على المشاة أو الفرسان فقط ، بـل تعداه إلى استخدام البحـارة القطـلان لمسـاعدتهم فـى مواجهـة هجمـات جـيرانهم

الحفصيين أو لشن هجمات على الموانئ الحفصية ، كذلك عمل قادة المرتزقة القطلان كسفراء لسلاطين بنى زيان لدى ملوك أسبانيا ، فنسمع عن القائد فيليب دى موبا Felip de Mova وخايمى يثريبخى ، وكذلك القائد خايمى الأراجونى (وهو ابن غير شرعى للملك خايمى الثانى ملك أراجون) هؤلاء عملوا كسفراء من قبل سلاطين بنى زيان إلى ملوك أراجون .

أما فى عهد الدولة الحفصية ، فمن المعروف أن الحفصيين فرع من الموحدين ينتسبون إلى أبى حفص يحيى بن عمر الهنتاتى شيخ قبيلة هنتاته إحدى بطون قبيلة مصموده ، والشيخ أبو حفص كان من كبار رجال المهدى بن تومرت ، وترجع صلة الحفصيين بتونس إلى أيام الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص صهر الخليفة الموحدى المنصور ، حيث ولى أفريقية فى خلافة الناصر محمد الموحدى عام ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م . ولما انهارت دولة الموحدين ورث الحفصيون الموحدين فى حكم أفريقية . وقد استخدم الحفصيون - شأنهم شأن بقية حكام المغرب - الجنود المسيحيين المرتزقة للعمل فى صفوف جيوشهم وخاصة كحرس لهم. وتشير المصادر إلى أن استخدام هؤلاء المرتزقة المسيحيين يرجع إلى بداية عهد الدولة . وقد خصص السلطان الحفصى أبو زكريا يحيى بن المستنصر الملقب بالواثق لهؤلاء المرتزقة ربضًا خارج النطاق الشرقى من مدينة تونس وسمى بربض النصارى(٤٢) .

وكان الغرض منه أن يمارس هؤلاء الجند شعائرهم الدينية بحرية تامة بعيدًا عن أعين المسلمين . كما سمح لهم ببناء كنيسة فى ربضهم تحمل اسم القديس فرانسوا يقام بها القداس وسمح لهم بدق الأجراس(٤٣) . وكما تعرض الموحدون لانتقاد الناس لهم بسبب استخدام المسيحيين فى جيوشهم ، لم يسلم الحفصيون من ذلك النقد ، فقد ذكر الآبى فى كتابه " الإكمال " أن السلطان الحفصى زكريا بن أحمد اللحيانى كان مارًا من باب السويقة - أحد أبواب مدينة تونس - ويحيط به حرسه من المسيحيين ، فتصدى له الشيخ القروى أحد زهاد إفريقية فى ذلك الوقت - وكان صديقًا للسلطان فى نفس الوقت - فقال له : يا فقيه لا يجوز

ذلك فتوقف السلطان ، واستفسر حول هذا النداء ، فأجابه الشيخ القروى مستشهدًا بإحدى أحكام الفقه المالكى ، وهى أن الله حرم الاستعانة بمشرك . ولم يزد السلطان فى رده على الشيخ القروى أكثر من قوله : أجل ، ثم انصرف(٤٤). ونلاحظ أن هذا الاعتراض على استخدام المرتزقة المسيحيين أنما صدر من أحد المتشددين فى الدين ، ولذلك لم يعبء السلطان به ، وظل استخدام المسيحيين فى الجيش الحفصى قائمًا حتى نهاية عصر الدولة الحفصية .

الهوامش

(١) أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، الأسكندرية ١٩٦٨ ، ص٢٠٦ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٧٤ ، كما أشار لسان الدين بن الخطيب إلى مسألة ثبات الفرنج فى قتالهم بقوله " والأحجام عندهم والتقهقر مقدار الشبر ذنب عظيم وعار شنيع " . الأحاطة فى أخبار غرناطة ، جـ٢ ، ص ٤٣ - ٤٤ .

(٣) الواقع أن عملية استخدام عناصر معينة كحرس للحكام المسلمين فى بلاد المغرب والأندلس ، بدأت منذ فترة بعيدة ، حيث استخدم الأمير الأموى الحكم بن هشام المعروف بالربضى (١٨٠ / ٢٠٦هـ - ٧٩٦ - ٨٢٢م) حرسا خاصًا من الصقالبة واستمر استخدامهم فى العهود المتعاقبة ، كذلك استخدم الفاطميون الصقالبة كحرس خاص وكقادة للجند ولكن الفرق بين الصقالبة والعناصر المرتزقة - موضوع البحث - أن الصقالبة مماليك اشتروا وربوا تربية عسكرية إسلامية ودربوا على أعمال القصر والحرس والجيش ، فهم يرتبطون ارتباطًا وثيقًا بسيدهم . وأما هؤلاء المرتزقة فكانوا يعملون نظير أجر معلوم ويمكن الاستغناء عنهم فى أى وقت . راجع : مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والأندلسى ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٤٠٨ - ٤٠٩ .

(٤) محمود إسماعيل : سوسيولوجيا الفكر الإسلامى ، القاهرة ، ١٩٩٢ ، جـ ٣ ، ق١ ، ص٣٣ ، ص٧٦ .

(٥) عبد الله الزيرى : مذكرات الأمير عبد الله أو كتاب التبيان ، نشر ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٩٥م ، ص ٢١٣ - ٢١٤ هوبكنز : النظم الإسلامية فى المغرب فى القرون الوسطى ، ترجمة أمين الطيبى ، ص١١١ .

(٦) مجهول : الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامه، ص٨٤ - ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق أحسان عباس، القسم الخاص بالمرابطين ، بيروت ، ١٩٨٠ - ص١٠٢ - ١٠٣ .

(٧) ابن القطان : نظم الجمان فى أخبار الزمان ، نشر محمود على مكى ، الرباط ، ١٩٦٤ ، ص٩٦ ، البيذق : أخبار المهدى بن تومرت ، تحقيق عبد الحميد حاجيات ، الجزائر ، ١٩٧٤م ، ص٨٦ - ٩٦ .

(٨) ابن صاحب الصلاة : المن بالأمامة على المستضعفين ، تحقيق د. عبد الهادى التازى ، بيروت ، ص ٧٨ ، انظر كذلك :

R. Dozy : Recherches sur L'historie et la Litterature de l'Espagne, Amesterdam, 1965, Tom. 2. pp. 427 - 442.

(٩) عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ، ١٩٦٣م ، ص ٣٨٣ .

(١٠) مؤلف مجهول : الحلل الموشية ، ص١٤٦ .

(١١) ابن صاحب الصلاة : المن بالأمامة تحقيق عبد الهادى التازى ، ص ٤٣١ .

(١٢) البيذق : أخبار المهدى بن تومرت ، ص١٦٧ - ١٦٨ .

(١٣) ليون الأفريقى : وصف أفريقيا ، ترجمة عبد الرحمن حميده ، الرياض ، ص١٤٤ .

(١٤) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس ، أو بسالا ، ص ١٦٧ ، السلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ ، جـ٢ ، ص٢٣٧ .

(١٥) ابن أبى زرع : نفس المصدر السابق والصفحة .

(١٦) مؤلف مجهول : ذكر مشاهير أعيان فاس فى القديم ، تحقيق عبد القادر زمامه ، مجلة البحث العلمى ، الرباط ، العدد ٣ عام ١٩٦٤ ، ص ٥٣ ، محمد بن مبارك المنلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث ، الجزائر ، ص٦٦٤ .

(١٧) محمد العروسى المطوى : السلطنة الحفصية ، منشورات دار الغرب الإسلامى ، بيروت ١٩٨٦ ، ص١٢٤ - ١٢٥ .

(18) Pierre de Cenival ; :'eglise Chretienne de Marrakech au XIII Siecle, R. Hesperis, Tome VII, Annee, 1927, ler Trimestre, p.75.

(١٩) السلاوى : الاستقصا ، جـ٢ ، ص٢٤٢ .

(٢٠) راجع التفصيلات فى : ابن عذارى ، البيان المغرب ، قسم الموحدين ، ص ٣١٩ - ٣٢٠ .

(٢١) المصدر السابق ، ص ٣٩٩ .

(٢٢) ابن خلدون : العبر ، جـ٧ ، ص ٢٤٤ .

(٢٣) ابن عذارى : المصدر السابق، ص ٤٣٦ ، ابن خلدون ، المصدر السابق ، جـ٦ ، ٢٦١.

(٢٤) ابن خلدون : جـ٧ ، ص١٧٣ - السلاوى : الاستقصا جـ٤ ، ص ١٣ .

(٢٥) نفس المصدر ص ٢٤٤ .

(26) Geminz Soler; OP. CIT., P. 262 - nota 2 .

(٢٧) راجع التفاصيل فى : ابن الخطيب : نفاضة الجراب فى غلالة الاغتراب ، تحقيق أحمد مختار العبادى ، القاهرة : ١٩٦٧ ص ٢٥ ، ص ٢٣٠ .

(٢٨) نفس المصدر السابق ، ص ٢٧١ - ٢٧٦، ابن خلدون : العبر ، جـ٧ ، ص٣١٣ .

(٢٩) ابن الخطيب : المصدر السابق ص٢٥٦ ، السلاوى : الاستقصا : جـ٤ ، ص٤٢ .

(٣٠) نفس المصدر ، ص ٣٠٦ .

(٣١) ابن خلدون : العبر جـ ٧ ، ص ٢٣٩ ، مجهول ، ذكر مشاهير أعيان فاس ، ص٩٧ .

(٣٢) ابن خلدون : العبر جـ ٧ ، ص ٣٢٤ .

(33) Gimenez Soler; La Corona de Aragon, p. 120.

(34) Lopez de Ayala : Cronica de los Reyes de Espana, p. 56.

(٣٥) يشير العمرى إلى أن السلطان أبا الحسن المرينى كان يعاقب من يتأخر عن الصلاة من الجند ، وإذا كان فى السفر وأذن المؤذن للصلاة نزل هو وجنده وتقام الصلاة جماعة ، العمرى : مسالك الأبصار ، ص١٣٠ .

(٣٦) ابن مرزوق : المسن د. الصحيح الحسن فى مآثر مولانا السلطان الحسن ، تحقيق ماريا خيسوس بيجرا ، الجزائر ، ١٩٨١ ، ص ٢٨٢ ، هذا ونشير هنا إلى أن التجار المسيحيين أيضًا سمح لهم بتناول الخمور فى المدن الإسلامية التى ينزلون فيها للتجارة ولكن داخل فنادقهم المخصصة لهم حتى يتيسر لهؤلاء التجار لونًا من ألوان الحياة الاجتماعية يتفق مع ما زلفوه فى بلادهم . راجع : سعيد عاشور ، دراسات فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، الكويت : ١٩٨٦ ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٣٧) ابن خلدون : العبر ، جـ ٧ ، ص٨٠ - ٨١ .

H. Terrasse : Histoire du Maroc. New York, 1973, Tom I, p. 355.

(38) Miret Y Sans : Un Missatage de Yarmssen de Tremcen a Jaume I., Boletinde La Real Academia de Buenas Lettras de Barcelona, Tom IX, 1915, pp. 95, Du Forcq, L'Espagne Catalane et le Maghrib aux XII e et XIV Siecles, Paris, 1966, p. 147.

(39) Dufourcq (Ch.) Les Espanoles et le royaume de Tlemcen aux XII et XIV siecles, Boletin de La Real Academia de Buenas Lettras, Barcelona, 1948, Tom XXI, p. 59.

(٤٠) يحيى بن خلدون : بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد ، نشر الفردبل - الجزائر، ١٩٠٣ ، ص ١١٤ - ١١٥ .

(٤١) راجع :

Capmany y Nontpalau : Memrias historicas Sobre la marina comercio y arts de la antigua ciudad de Barcelona, Madrid, 1779 - 1792. vol, 4, pp. 67 - 69 - De Mas Latrie : Traites de Paix et de commerce divers concernant Les relations de chretines avec les Arabs de L'Afrique Septentrionale au moyen age, Paris, 1860, Tom, 1, p. 312.

(٤٢) ليون الأفريقى : وصف أفريقيا ، ترجمة عبد الرحمن حميد ، الرياض ، ١٣٩٩ هـ ، ص ٤٦٦ - ٤٦٧ - ابن أبى دينار ، المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس ، تونس ، ١٣٠٥هـ ، ص ١٤٥ - ١٥٠ .

(٤٣) برنشفيك ، تاريخ أفريقية فى العهد الحفصى ، ترجمة وتعليق حمادى الساحلى ، بيروت ، ١٩٨٨م ، جـ١ ، ص٤٧٨ .

(٤٤) الآبى : الأكمال ، طبعة القاهرة ، ١٣٢٧ - ١٣٢٨ هـ ، جـ٤ ، ص ٣٥٥ .